

أحمد عز الدين أسعد *

«اليهود العرب: قراءة ما بعد كولونيالية في القومية والديانة والإثنية» ليهودا شنهاف

يهودا شنهاف شهرباني.

اليهود العرب: قراءة ما بعد كولونيالية في القومية
والديانة والإثنية.

ترجمة ياسين السيد.

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية؛ مدار.

٢٠١٦.

٣٧٢ صفحة.

في أهمية الكتاب والكاتب

تنبع أهمية الكتاب من تناوله موضوعاً مهماً جداً وحساساً هو موضوع اليهود-العرب^١ وقد نشطت الحركة الصهيونية منذ ما قبل قيام إسرائيل في محاولات متعددة من أجل

* باحث في الشؤون العربية والإسرائيلية.

صهينتهم وأسرتهم، وتعاملت معهم كمخزون ديمغرافي؛ يرفد المجتمع الإسرائيلي من أجل تحقيق كثافة ديمغرافية صهيونية إسرائيلية في فلسطين المستعمرة. كما وتبرز أهمية الكتاب من تناوله هذا الموضوع بمنهج نقدي وتحليلي يشمل التاريخ الشخصي والاجتماعي والتحليل الثقافي. كذلك، يجادل الكتاب من خلال أفكار وحجج من منظور ما بعد كولونيالي/ ما بعد حداثي مستعيناً بمقاربات سياسات الهوية، ويبيّن سياسات الحركة الصهيونية وإسرائيل في محاولاتها وفشلها في عمليات قمع الهوية العربية لليهود العرب.

وتضفي تجربة مؤلف الكتاب بعداً أخرى يساهم في تعزيز أهمية الكتاب؛ لكونه (أي المؤلف يهودا شهرباني) عالم اجتماع وأنثروبولوجيا عراقي الأصل، وهو ناقد للصهيونية وسياسات إسرائيل، ترأس لسنوات مجلة «نظرية ونقد» المتخصصة في نقد الصهيونية وإسرائيل، فمكنته هذه السمات من تقديم رواية

وقد نظر الوعي الصهيوني إلى اليهود العرب في سياقين نموذجيين مختلفين: من ناحية هم يهود عرب، فهم آخر غير أوروبا والصهيونية، ومن ناحية أخرى هم اليهود القدماء وبالتالي هم الأعيان السامية والمقدسة في الخطاب القومي الديني الصهيوني. لقد شارك مبعوث شركة «سوليل بونيه» في شرقنة اليهود العرب وخلق الاختلاف بينهم وبين العرب، وذلك من خلال إثبات أنفسهم باعتبارهم يهوداً غربيين.

نقدية ومغايرة حول اليهود العرب تنقد الرواية الصهيونية الرسمية وتفندها.

مبنى الكتاب

قبل الفصل الأول يبدأ الكتاب بمقدمة مطولة موسومة بـ «التاريخ يبدأ من البيت»، يقول فيها شهرباني أن بوابة العبور لوالده (والد شهرباني) ومجموعة عربية أخرى إلى إسرائيل كانت من خلال تجنيدهم في جهاز الاستخبارات الإسرائيلية، فكانت سماتهم العربية هي بطاقة عبورهم إلى الكيان الإسرائيلي، وإن ولوج هؤلاء إلى الكيان الجمعي الإسرائيلي كان يفرض عليهم البقاء جزءاً من العالم العربي الذين كانوا يعملون ضده. كان هذا المنطق الذي ستقوم عليه الدولة الإسرائيلية الملبئة بالتناقضات، فهي تريد أن تنزع عن اليهود العرب القاطنين فيها كينونتهم العربية وتجردهم منها، وفي ذات الوقت تتوسل من آخرين مواصلة العيش باعتبارهم عرباً بالفطرة. وقد بين شهرباني أن هناك نزعتان في الخطاب الإسرائيلي في تناول هوية اليهود العرب في إسرائيل؛ نزعة/ منهجية تنظر إليهم كظاهرة تضرب جذورها في اليهود العرب أنفسهم وفي ثقافتهم العربية (المنهجية الماهوية)، ومنهجية نيو-ماركسية تركز على الطبقات وتعامل الكينونة المزارحية (الشرقية على أنها جماعة إسرائيلية أصلية تحدها الطبقة ومحل الإقامة والمستوى التعليمي وظروف سوق العمل، وتعاني كل واحدة من هاتين المنهجيتين من عمى ذاتي متأصل فيها. فالموقف الماهوي الثقافي يتجاهل السياق السياسي والثقافي الذي تشكلت فيه هوية اليهود العرب ويغض الطرف عن الهياكل الأيديولوجية التي تسم الدولة اليهودية، والتي يعاد فيها إنتاجها وتشكيلها والتعبير عنها. ويتجاهل التوجه القائم على الطبقة الأصلية العربية التي يتحدر منها اليهود العرب وينفي تاريخهم، وكلا المنهجيتين تعبر عن «الكينونة المزارحية»، وتقدمها على أنها تتمايز عن الكينونة الاشكنازية، لكن الكتاب يقدم نظرة مغايرة تتحاشى بعض هذه العقبات.

في الفصل الأول «اكتشاف اليهود العرب» يجادل شهرباني أن حالة عبدان (مدينة تقع غرب إيران على شواطئ الخليج العربي، وهي قريبة من الجمهورية العراقية، وشكلت عبدان نقطة ارتكاز لتهجير يهود العراق). تعد حالة فريدة؛ لأنها جسدت أول لقاء جرى على خلفية خطة عمل عينية للهجرة، أجرتها قيادة الدولة (قبل قيامها) والأجهزة البيروقراطية التابعة لها، وهي الخطة المعروفة باسم خطة المليون شخص. فقد جرت لقاءات بين اليهود الأوروبيين واليهود الفلسطينيين -من الصهيونية أو من خارجها- مع اليهود العرب قبل العام ١٩٤١ لكن شهرباني يدافع عن عام ١٩٤٢ باعتباره المرجعية التاريخية في هذا الشأن. ويجادل أن اكتشاف اليهود العرب جرى ضمن سياق كولونيالي، وهناك ثلاثة جوانب مختلفة وتكمل بعضها بعضاً، أولاً، جرى تنظيم النشاط الصهيوني في عبدان والمناطق المحيطة بها من خلال شبكات كانت تشكل أجهزة تابعة للدولة الكولونيالية البريطانية. ثانياً، كان الخطاب الكولونيالي والممارسات الكولونيالية والوعي المتصل بمسائل من قبيل اللون والعرق «الظاهراتية الكولونيالية» تتوسط نشاط المبعوثين الصهاينة، ثالثاً، عمل المبعوثون ضمن سياق نموذج استشرافي واضح لم يسقطوه على السكان الأصليين المحليين فحسب بل طبقوه على السكان الأصليين اليهود أيضاً، وهو ما يمثل ظاهرة يسميها الباحثون «الاستشراق اليهودي». ينطلق شهرباني في الفصل الثاني المعنون «اللقاء في عبدان: الكولونيالية، النزعة المركزية الأوروبية، والاستشراق اليهودي» من مقولة أساسية بأن الصهيونية تقوم على ملامح كولونيالية ذات نزعة مركزية أوروبية. ويصف شهرباني أن عبدان كانت كخزان ومختبر للهويات الإثنية، ويسقط على عبدان مفهوم فوكو «الهيتروتوبيا» أي الأمكنة المتغايرة، وذلك كون عبدان خلقت حيزاً صهيونياً ضمن الحيز العربي الإيراني، وهو موقع هجين الإدارة بريطانية/ الحركة الصهيونية. كما أن مشروع عبدان عمل على ربط أجزاء مختلفة من الزمان، واجتمعت فيه تواريخ غير متجانسة: الزمن الأوروبي والزمن المحلي والزمن

نجح شهرباني من خلال توظيفه المنهج والنظرية ما بعد الحداثية النقدية في تفكيك الرواية الصهيونية الرسمية حول اليهود العرب، وقدم مساهمة نقدية في نفي فكرة الأمة اليهودية كقومية، وكشف وهن الرواية القومية الصهيونية التي حاولت قمع قومية اليهود العرب أي قوميتهم العربية، كما فشلت في تحقيق قومية يهودية كون اليهود العرب والشرقيين أيضاً ما زالوا يحتفظون بسمات قوميتهم الأصلية التي حاربتها الصهيونية ودولتها الاستعمارية إسرائيل.

الصهيوني والزمن الكولونيالي.

كما شكلت قصة عبدان هوية إثنية في حيز ثالث، وهي هوية بينية بين نموذجين يتداخلان مع بعضهما البعض، وهما نموذجا الكولونيالية والقومية. وعمل نموذج «سوليل بونيه»^٢ على طمس الحدود القائمة بين النموذج القومي الصهيوني والنموذج الكولونيالي بطابعه المزدوج. وقد نظر الوعي الصهيوني إلى اليهود العرب في سياقين نموذجيين مختلفين: من ناحية هم يهود عرب، فهم آخر غير أوروبا والصهيونية، ومن ناحية أخرى هم اليهود القدماء وبالتالي هم الأعيان السامية والمقدسة في الخطاب القومي الديني الصهيوني. لقد شارك مبعوث شركة «سوليل بونيه» في شرقنة اليهود العرب وخلق الاختلاف بينهم وبين العرب، وذلك من خلال إثبات أنفسهم باعتبارهم يهوداً غربيين.

يتناول الفصل الثالث «كيف أصبح اليهود العرب متدينين وصهيونيين؟» ويقول شهرباني، لم يكن أمام اليهود العرب من خيار سوى التدين لكي يكون لهم صوت في الخطاب الصهيوني. وعمل المبعوثون الصهيونيون في إسباغ السمّة الدينية على اليهود العرب وتمت شرقنتهم من خلال الديانة، وكان هدف الصهيونية إسباغ نسخة خاصة من الدين المعين على اليهود العرب، فهم كانوا يهوداً متدينين واتقياء قبل اللقاء مع الصهيونية. وقد سلكت الصهيونية طريق يمكن وصفها باللاهوت السياسي، عمل على تهجين الديانة والقومية، وتطهيرهما في الوقت نفسه. كما عملت شبكة المبعوثين «شدريم» على التبشير بالأحداث الصهيونية بين الطوائف اليهودية والعمل على تشجيع الطوائف اليهودية للهجرة إلى فلسطين، وكان هؤلاء المبعوثون جنوداً في الجيش البريطاني، موظفين في شركة «سوليل بونيه» للمقاولات وحاخامات. ويجادل شهرباني بأن الحالة الصهيونية فريدة في الجمع والتقاطع بين الدين والعلمانية، وذلك لأنها تدفع مبدأياً الحداثة (التهجين والتطهير) إلى حديهما الأقصىين، ولأنها تتخطى القاسم الغربي/ غير الغربي. وهذا ما يشير إلى أن

القومية الغربية ليست علمانية بكاملها، وبأن القومية غير الغربية ليست دينية بحذافيرها.

بين شهرباني في الفصل الرابع الموسوم «ما هي القواسم المشتركة بين اليهود العرب والفلسطينيين؟ تبادل السكان، حق العودة وسياسة جبر الضرر»، أن يهود العراق هم أول اليهود الذين وصلوا بصورة جماعية بعد إقامة «دولة إسرائيل». وقد قامت الحركة الصهيونية بنشاط كثيف من أجل تهجير يهود العراق، وترفض إسرائيل مسألة تعويض اللاجئين الفلسطينيين كون الحكومة العراقية مارست الظلم اتجاه يهود العراق. وبرزت أهمية يهود العراق وأخذت الحركة الصهيونية في العمل على صهينتهم كون العراق محطة مهمة للاجئين اليهود الذين وصلوا من أوروبا الشرقية إلى الحدود السوفيتية – الإيرانية، وكان لأحداث الفرهود التي نفذها القوميون العراقيون في شهر حزيران ١٩٤١ ضد اليهود في العراق أثر في تسريع وتيرة تهجيرهم، وكان ينظر إلى يهود العراق من قبل الحركة الصهيونية كاحتياطي سكاني من شأنه ترجيح كفة التوازن الديمغرافي في فلسطين لصالح اليهود.

في الفصل الخامس المعنون «اليهود العرب والذاكرة التاريخية الصهيونية» وضح شهرباني كيف عملت الحركة الصهيونية على تشكيل الذاكرة الجمعية للأمة الإسرائيلية، حيث اضطلعت بتأليف وبناء صور الماضي المرتبطة بأصول الأمة وتطورها على مدى الزمن، وأعاقت الرواية الصهيونية تشكيل مقاطع محددة من الماضي، حيث باتت هذه الرواية مجتزأة بصورة لا فكاك منها، ورسمت الرواية التاريخية اليهودية على أساس العلاقة مع الأرض. وبين شهرباني أن المنظمة العالمية لليهود من البلاد العربية تشكلت كرد أو جواب يهودي على منظمة التحرير الفلسطينية، وتبنت خطاب أن اليهود لهم تاريخ راسخ في «الشرق الأوسط»، وجرى تبادل للسكان الفلسطينيين واليهود بحكم الأمر الواقع، بمعنى تعويض الأملاك التي فقدها العرب واليهود بشكل متبادل، وكان هناك من عوامل تأسيس المنظمة وهي ضرورة دمج تاريخ اليهود

الهوامش

- 1 للمزيد حول تاريخ اليهود العرب وهويتهم انظر: جيل النجار. «أسئلة الحاضر، اليهودي العربي: تاريخ العدو». ترجمة رنا بركات وعبد الرحيم الشيخ. الكرمل الجديد. عدد 3-4، ربيع- صيف (٢٠١٢).
- 2 شركة اقتصادية من تأسيس الهستدروت العامة، لعبت هذه الشركة دورًا كبيرًا في بناء وترسيخ الاقتصاد الإسرائيلي من خلال مبادرات ومشاريع العمل التي كانت تقوم بتنفيذها في إسرائيل وتوفير أماكن عمل لعشرات الآف العمال والموظفين. جرى تأسيسها العام ١٩٢٣ تحت شعار: (شركة العمال العبرية المساهمة للأشغال العامة- بناء وصناعة).
- 3 مارسيليو سفيرسكي. ما بعد إسرائيل: نحو تحول ثقافي. سمير عزت نصار (مترجم)، (ميلانو: منشورات المتوسط. ٢٠١٦).

المندحرين من البلدان العربية مع ما مر به اليهود في أوروبا. حملت خاتمة الكتاب عنوان «ما بعد الصهيونية المنهجية»، وفيها درس الكتابُ المزارحين ضمن السياق العام للمنطقة العربية من خلال توظيف إطار ما بعد كولونيالي، ودراستهم باعتبارهم يهودًا عربيًا، من أجل التصدي لنظرية المعرفة الصهيونية ودراسة اليهود العرب في سياق الكفاح الوطني الفلسطيني، كذلك لمن يدرس المؤرخون الجدد اليهود العرب سوى في حالات استثنائية قليلة، وما نسميه «الصهيونية المنهجية» التي تشغل في ثنائية دراسة اللاجئ الفلسطيني ودراسة اليهود العرب.

ملاحظة أخيرة

نجح شهرباني من خلال توظيفه المنهج والنظرية ما بعد الحداثية النقدية في تفكيك الرواية الصهيونية الرسمية حول اليهود العرب، وقدم مساهمة نقدية في نفي فكرة الأمة اليهودية كقومية، وكشف وهن الرواية القومية الصهيونية التي حاولت قمع قومية اليهود العرب أي قوميتهم العربية، كما فشلت في تحقيق قومية يهودية كون اليهود العرب والشرقيين أيضًا ما زالوا يحتفظون بسمات قوميتهم الأصلية التي حاربتها الصهيونية ودولتها الاستعمارية إسرائيل.

ويقدم الكتاب إضافة نوعية في توضيح دور (المنظمة العالمية لليهود من البلاد العربية) التي أسهمت في بناء أساطير وهويات مزيفة حول اليهود العرب بمنظور صهيوني استشراقي. ويتجاوز شنهاف منظور مارسيليو سفيرسكي في تفكيك صهيونية إسرائيل التي تعمل على صناعة الهوية الإسرائيلية من خلال أربع مؤسسات مركزية (المتنزه- العلاقة مع الأرض، المدرسة- المؤسسة التعليمية؛ الوالد- مؤسسة الأسرة؛ الناخب- اللعبة السياسية؛ والديمقراطية الزائفة) ٣ حيث عمل سيفرسكي على تشريح سياسات صهيونية الهويات في إسرائيل في حين عمل شهرباني على تفكيك الرواية المركزية الصهيونية من خلال إدعاء مركزي، متمثل في أن محاولات إنتاج هوية صهيونية جامعة من خلال قمع كل القوميات الأخرى أثبتت فشلها، ويصغي شهرباني إلى أصوات تاريخية همشتها الرواية الصهيونية الرسمية واستنتجتها من الذاكرة الجمعية، وقد روى لنا الكتاب سرديات وذكريات اليهود العرب الذين احتكرت الحركة الصهيونية ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.